الفصل الثاني:

"هم" "الأشرار"، "يكرهون" "أمريكا".

بدءا بأول بيان متلفز، وخطاب حالة الاتحاد الذي ألقاه الرئيس "الحقيقي"، مرورا بالبيت الأبيض "الافتراضي" في مسلسل "الجناح الغربي"، ووصولا إلى عدد لا يحصى من التغطيات الإخبارية والتعليقات والآراء في وسائل الإعلام المرئية والمطبوعة، تكرر السؤال "لماذا يكره العالم أمريكا؟" إلى ما لا نهاية. العبارة أخذت صيغة خبر، مقدمة منطقية مقبولة ينطلق منها النقاش. لكن العبارة، كسؤال، صفت ونظمت مصطلحات وتعابير تجاوزت كثيرا - في المعنى والمضامين - أحداث الحادي عشر من سبتمبر. ولم تكن مجرد سؤال عاطفي يطرح في حمأة اهتياج اللحظة الراهنة - بل سؤال يستخدم التعابير الانفعالية لوضع هذا الاهتياج في سياق أوسع، سياق الأحداث والأفكار قبل وبعد الحادي عشر من سبتمبر.

إذا كان السؤال عبارة عن بحث عن مزيد من المعلومات والأفكار وتجاوز ما هو معروض منها، فنحن بحاجة للبدء بفهم عناصره التكوينية. سؤال "لماذا يكره العالم أمريكا" يتألف من ثلاثة مكونات أساسية: "العالم"، "الكره"، "أمريكا".

وإذا قصدنا بالعالم "الناس"، فمن هم هؤلاء الناس؟ كيف صنف الأفراد أو الجماعات ضمن هذه الفئة ـ ما الذي يميزهم؟ "الناس" يعرَّفون بواسطة الخاصية/ السمة التي نسبت إليهم: الكره. الكره يحض الناس على اتخاذ موقف الدفاع ويجعلهم على استعداد للهجوم إضافة للدفاع. للكراهية تاريخ؛ فهي تشكل في أغلب الأحيان قوة دافعة في حياة البشر وشؤونهم. الكراهية تحدد التخوم الفاصلة بين الشعوب، وتباعد الشُّقة بينها، وتخلق مشاعر الشك والعداوة التي تجعل من الممكن ارتكاب جرائم بشعة. الكراهية توفر السياق، مجموعة من التقاليد والعادات المفهومة. لكن هل تفسر هذه التقاليد والعادات لِمَ تُستهدف أمريكا؟

الكراهية شعور بالاستياء والغيظ يستحضر دوما رد فعل، وهو يخلق جملة من المدركات المتبادلة بين الأشخاص الذين يبغضون موضوع كراهيتهم. ومن الخطورة بمكان، كما يشير التاريخ، أن يعتبر المرء نفسه موضوعا وهدفا للبغضاء، ويخاف انقضاض كره الآخرين عليه، وهذا يعادل تماما خطر جعل "الآخر" هدفا للكراهية. بين "الناس/ العالم" الذين يسعى السؤال لتحديد هويتهم، و"أمريكا"، لا يوجد خط واحد من

التفسير بل علاقة تبادلية ينبغي كشفها، وفهمها، وتقييمها، وحل إشكاليتها.

في النهاية، يأتي السؤال إلى أمريكا. أية أمريكا يستهدفها الكره، وكيف تتصل بأمريكا التي يحبها ويفهمها أولئك الذين يسعون لتحديد هوية المتورطين في جريمة كراهيتها؟ إذن، سؤال مثير بسيط يقدم افتراضات حول بعض من أعقد القضايا، ولهذا السبب علينا تقصي واستنطاق السؤال بدلا من الانخداع بالأجوبة السهلة الجاهزة.

في صبيحة الحادي عشر من سبتمبر، حين كان العالم يشاهد الحدث والرعب يتملكه، لم يكن ثمة شك في هوية المسؤولين. الفكرة الأولى التي خطرت للجميع كانت بسيطة: الإرهابيون كانوا من المسلمين/ العرب/ الإسلاميين / المتطرفين / الأصوليين؛ كانوا "الآخرين"، "هم". النتيجة ظهرت قبل التحقيق أو الاستقصاء أو البينة، لأنها فكرة شمولية، معتقد راسخ، "كليشيه" ثقافية، أسهل افتراض جرت "برمجتنا" مسبقا لقبوله. كيف أثر هذا النزوع والقابلية والاستعداد، هذا الارتياب الجاهز، في الاستجابة لأحداث الحادي عشر من سبتمبر؟ هل عقد ذلك القضية وصعّبها أم جعلها أسهل وأيسر؟ هل ساعد حقا على تحديد هوية مرتكبي هذه الجرائم واقتفاء أثرهم، أم عتمّ

على الطبيعة الواضحة للجريمة والمجرمين المسؤولين عبر الإشارة إلى طبقة عامة لا متمايزة، "ناس/ عالم"، هم جزء من الظروف التي جعلت هذه الجريمة ممكنة؟ هذه الأسئلة أوجدت سياقا أوسع: تاريخا من الأفكار والمعارف والتقاليد الثقافية. هذا السياق الثقافي الأوسع هو الذي يجب أن نشبعه بحثا ونقتله استقصاء ودراسة.

تحدت الأعمال الإرهابية سذاجتنا بمعنى واحد فقط - فهي حقيقة وليست خدعا سينمائية من إنتاج هوليود. إلى أي مدى وفرت السيناريوهات الخيالية لعدد لا يحصى من الأفلام والروايات السياق الذي فهمنا في إطاره هذه الجريمة الحقيقية والسؤال الذي أفرزته؟ لا يوجد في أرشيف هوليود فيلم زود أحدا منا بالمناعة ضد صدمة وترويع أحداث الحادي عشر من سبتمبر. لكن من الأسهل بكثير تحديد كيف عتمت الأفلام المزيفة التي شاهدناها على الاستجابات على هذه الأحداث، في نيسان/ أبريل من عام 2000 عرض فيلم بعنوان "قواعد الاشتباك" لاقى نجاحا كاسحا طيلة أسبوعين كاملين. وصفت "لجنة الأمريكيين العرب لمناهضة التمييز" الفيلم بأنه "قد يكون أشد الأفلام العنصرية وحشية وضراوة في معاداة العرب، تنتجه شركة هوليودية في تاريخ السينما". وردت شركة "بارامونت

بيكتشرز" (Paramount Pictures) بالقول إن الفيلم عبارة عن "رواية خيالية تصف عواقب التطرف بكل أشكاله"، وألحت على أنه "لم يكن اتهاما أو تجريما لأية حكومة، أو ثقافة، أو شعب". لكن في مراجعته النقدية على موقع الويب "film.com"، ذكر بيتر برونيت أن " المتفرجين هللوا وصفقوا حين ذبح مشاة البحرية المدنيين"[1].

"قواعد الاشتباك" فيلم يتناول المدركات عن الناس والأحداث، ويركز خصوصا على حدث مروع يطلب منا مرارا وتكرارا معاينته بتفاصيل أدق حتى اقتنع المخرج أخيرا بأننا عرفنا ما ينبغي معرفته. الحدث المركزي يدور في اليمن، حيث حوصرت السفارة الأمريكية من قبل عدد من المحتجين. ثم أرسلت وحدة من "مشاة البحرية" ("المارينز") من حاملة طائرات قريبة لتعزيز أمن السفارة، وإجلاء العاملين فيها إذا دعت الحاجة. حين اقتربت الحوامة، احتل مسلحون مواقع لهم على أسطح المنازل المجاورة وأخذوا بإطلاق النار على السفارة. في الساحة التي تطل عليها السفارة، ما زال المتظاهرون المحتجون متجمهرين، يرددون الهتافات، ويلوحون القبضات، ويلقون الحجارة على المبنى. دخلت وحدة "المارينز" مجمع المباني وتعرضت لرصاص القناصة المتمركزين على الأسطح المجاورة. وما إن تم

إجلاء السفير وعائلته، وأصيب بعض أفراد الوحدة، حتى أصدر الضابط المسؤول أمرا بفتح النار، لا على القناصة، بل على الحشد المتجمع في الساحة. قتل "المارينز" عددا كبيرا من الرجال والنساء والأطفال (عند هذه اللحظة هلل المتفرجون في الصالة تبعا لما ذكره برونيت). وحين أوقف مشاة البحرية إطلاق النار، هدأ المشهد، ولم يبق أحد في الساحة - كانت مجزرة راح ضحيتها ثلاثة وثمانون قتيلا ومئات الجرحى.

تحولت قصة الفيلم بعد ذلك إلى دراما مؤثرة تدور داخل قاعة المحكمة. فقد وجهت تهم بالقتل، والسلوك غير اللائق، وخرق السلام ضد عقيد مشاة البحرية الذي أصدر الأمر بارتكاب المجزرة. مع تقدم المحاكمة نشاهد المعركة الدموية (التي استخدمت فيها الأسلحة الرشاشة) عدة مرات من زوايا مختلفة تمنحنا رؤية أوضح، ليضيف كل منها مزيدا من التفاصيل، إلى أن تكشفت كل الجوانب في نهاية المطاف. ما الذي نعرفه عن الناس الذين قدموا في البداية على أنهم ضحايا مدنيين أبرياء؟ ليس هؤلاء شخوصا، بل حشد، جمهرة. نعلم بأنهم يتظاهرون كل أسبوع أمام السفارة الأمريكية. ما هي الدوافع وراء هذه المظاهرات؟ وجدت نسخ من أشرطة التسجيل على أرض السفارة المدمرة، بل حتى إلى جانب أسرة الجرحى

المحتضرين في المستشفى. ترجمت هذه الأشرطة في المحكمة. ونعلم بأنها تحتوي إعلان "الجهاد الإسلامي المقدس ضد الولايات المتحدة"، ودعوة إلى قتل كافة الأمريكان، مدنيين وعسكريين. هذا كل ما يتعلق بالدوافع. وما هو تأثير هذه الأشرطة في إدراكنا للأحداث وما حصل لحشد الناس المتجمهرين؟

في المرة الثانية التي أخذنا فيها الفيلم إلى موقع الحدث خارج السفارة، أصبح الناس هناك حشدا من المخدوعين المستعدين للسماح للرجال المسلحين الموجودين بينهم بإطلاق النار ثم الإفلات دون عقاب. لم يتفرق الحشد عند سماع صوت الرصاص - بل على العكس كثف من احتجاجه. وظهر المسلحون على أسطح المنازل وهم يأخذون مواقعهم أمام نساء يرتدين الشادور؛ وقفت واحدة هناك تحمل طفلا على ذراعيها. في المرة الثالثة التي نزور فيها الموقع نعرف - على العكس من الدليل المقدم من قبل الطبيب الذي عالج الجرحى - أن هناك مسلحين بين حشد المتظاهرين. في المرة الأخيرة، يكشف المشهد عن أن كل المتظاهرين يحملون أسلحة، بمن فيهم النساء والأطفال. بل إن النساء كن يخرجن السلاح من تحت العباءات السوداء - وأطلقوا جميعا النار على "المارينز". حتى الفتاة الصغيرة العرجاء

التي ظهرت في عدة مشاهد وهي تتعثر على عكازين، وبدا شكلها مؤثرا بوجهها الجميل وعينيها النجلاوين، تحولت إلى قاتلة شيطانية تسدد مسدسا على الجنود الأمريكيين المدججين بالسلاح.

ما رسخته قاعة المحكمة في الأذهان هو أن تقييم عقيد مشاة البحرية للوضع كان صائبا. برئت ساحته، وأظهر الفيلم أن السياسيين والديبلوماسيين قد كذبوا، وعرقلوا سير العدالة، وحاولوا التغطية على الحقيقة. وقبل انتهاء الفيلم، حصلنا على سلسلة من التعليقات والشروح، وهذه وسيلة معيارية تستخدمها كافة الأفلام التي "تعتمد على قصة حقيقية". التعليقات أخبرت المشاهدين عن مصير الشخصيات بعد الأحداث التي صورها الفيلم، حيث نال مستشار الأمن القومي والسفير الأمريكي جزاءهما العادل. وتعمد الفيلم الإشارة إلى أن القصة قد حدثت في تاريخ أمريكا القريب، الأمر الذي دفع السفير اليمني في الولايات المتحدة، عبد الوهاب الهاجري، إلى القول إن العديد من المشاهدين قد سألوا: "متى حدث ذلك؟"[2].

في الواقع شارك البنتاغون (وزارة الدفاع) في إنتاج الفيلم، مثلما فعل في كثير من الأفلام التي تمجد المؤسسة العسكرية. وحين قدمت الشكاوى ضده، صرح الناطق باسم وزارة الدفاع

كينيث بيكون شارحا رأي وزارته في الموضوع، حيث أشار إلى أن "الأفلام السينمائية توفر صورة نزيهة، ودقيقة، كما يأمل، للجندي الأمريكي". وفيما وراء هذا الاهتمام المحدد للوزارة، فإن للشركات السينمائية "الحق بإنتاج الأفلام بالطريقة التي تختارها"[3]. لكن من هي الجهة التي تدقق وتتفحص وتقدم المشورة فيما يتعلق بتقديم "الناس"، وحشد الأعداء، على الشاشة؟ رد السفير اليمني محتجا: "فجأة، أصبح اليمنيون، رجالا ونساء وأطفالا، إرهابيين، ويريدون قتل الأمريكان. إنه لأمر شائن وفاضح"[4] أما جاك شاهين، مؤلف كتاب "صورة العرب على شاشة التلفزيون"، فقد قال لمجلة "الأهرام الأسبوعي" إنه يعتبر الفيلم "الأسوأ في تاريخ السينما"، فهو ينقل رسالة بسيطة: "من المناسب والصائب أخلاقيا قتل العرب، وذبح حتى أطفالهم". وأضاف إن هوليود تجد "من المقبول تماما ذم وقدح وأبلسة كل عربي ومسلم كائنا من كان"[5]. وأكد رأيه السفير الأمريكي السابق في اليمن، وليام رو، الذي يشغل الآن منصب رئيس منظمة "اميد ـ ايست" (EAST. AMID) التي تعمل على تشجيع فهم أفضل للشرق الأوسط بين الأمريكيين. ونقل عن وليام أنه قال: "إنه فيلم منحاز يعزز الأحكام المسبقة المتحيزة ضد العرب"، وأضاف إن "تشويه الحقائق" ناتج عن الجهل[6].

ما علاقة السينما، وسيلة الترفيه الشعبية، بسؤال ("لماذا يكرهوننا؟") طرح في خضم أشد الوقائع إثارة للقلق والضيق؟ تشكل الثقافة الشعبية وتقاليدها جزءا من السياق والظروف، والأفكار والمعلومات التي يتأطر ضمنها السؤال وتقدم الأجوبة. "الناس" الذين يسعى السؤال لفهمهم، تغلفهم وتطوقهم "كليشيه" ثقافية مبتذلة. هؤلاء "الناس" هم "عمومية"، مبدأ عام، ستارة المسرح الخلفية التي روي أمامها عدد لا حصر له من الحكايا، بموازاة مقلقة مع الرعب الحقيقي الآن. أما تقاليد سرد الحكاية فقد استمرت في التعتيم على الفارق المميز بين جمهور "الناس" والعدو المحدد: الإرهابي. فكلما زاد فيلم "قواعد الاشتباك" في استقصائه وسبره لمدركات الحدث المحوري فيه، كلما كرر التوكيد على الفرضية التي تبناها العديد من أفلام هوليود الأخرى التي ظهرت مؤخرا، مثل "النسر الحديدي"، و"الأكاذيب الصادقة"، و"الحصار"، حيث يشكل "الإرهاب الإسلامي" حبكة الرواية، "الخطاف" الذي يعلق عليه التشويق أو الإثارة أو حركة الصورة. لم يعد الإرهابي وحده هو الشخصية المنمطة المبتذلة ذات البعد الواحد، التي ليس لها وظيفة إلا تجسيد المتعصب المتزمت، حائك المؤامرات لإنزال الضرر بأمريكا وقتل الأمريكيين. وإنما جرى تقديم "الناس"، عمومية الناس العاديين الذين أتى الإرهابيون منهم، باعتبارهم يشتركون

في نفس سمات وخصائص أولئك الذين ينفذون العمليات الإرهابية. في أفلام مثل "قوة دلتا"، حيث يستولي عدد من الإرهابيين الفلسطينيين على طائرة تجارية، و"الحريم"، حيث يسعى أمير عربي لاستعباد البيض، لا يرتبط الذنب/الإثم/الوزر بالأفراد المعنيين فقط، بل ينزاح ليشمل كل الفلسطينيين والعرب والمسلمين عموما.

في فيلم "قرار تنفيذي" (1996)، تقوم جماعة من الإرهابيين الإسلاميين الأصوليين بخطف طائرة ركاب لنقل سلاح كيماوي إلى الولايات المتحدة. القرار التنفيذي (عنوان الفيلم) هو أمر رئاسي بإسقاط طائرة الركاب، وهو أمر طبق بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر. في فيلم "الحصار" (1998)، أدت سلسلة من الهجمات المدمرة بالقنابل على نيويورك إلى إقامة معسكرات اعتقال للأمريكيين العرب والمسلمين. بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، صدر "قانون الوطنية" (في 10/26/ 2001، حيث دمج وظائف ومهام وكالات الاستخبارات مع تنفيذ القانون المحلي، مما أعطاها سلطات واسعة وكاسحة، وبالتالي ألغى عمليات التحقيق والتدقيق والموازنة التي كانت تعطي المحاكم في السابق الفرصة لضمان عدم إساءة استخدام هذه السلطات)، ونتيجة لذلك اعتقل عدد يقدر بألف ومائتي

شخص وحرموا من حقهم باستشارة المحامين، كما أن هنالك سجنا في خليج غوانتانمو في كوبا، حيث لم يتضح حتى الآن الوضع القانوني للمساجين. وبما أن الأفلام التي شاهدناها وفرت سياقا مناسبا لكل هذه الأحداث الحقيقية، أفلا يتوجب علينا تفحص واستقصاء المدى التي وصلت إليه الأنماط السينمائية الخيالية في توفير المعلومات التي لا يعرفها أو لا يفهمها معظم الناس في مختلف أرجاء العالم عن الحقائق في الحياة الواقعية؟

تبهت مشاهد الدمار السينمائية المذهلة أمام أحداث الحادي عشر من سبتمبر، ويتضاءل تأثيرها. لكن تبقى الصلة قوية وواضحة بين جو الخوف الحقيقي، والتهديد الداهم، والخطر الراهن، وبين تمثيلاتها على الشاشة. يمكن للخوف الحقيقي أن يستخدم المناظر السينمائية المؤثرة لتقديم الأسباب. فالسينما تزود "الناس" المجهولين، البعيدين، "كتلة" الحشد غير المحددة، بالوجوه والملامح، وتسلط الضوء على فكرة واحدة ملحة تبين الباعث المحرك الذي يدفعهم: الكراهية.

استخدمت الكراهية على الدوام النماذج المنمطة لتبرير العداوة والعدوان، وتفسير السبب الذي يدعو جماعة لحرمان جماعة أخرى من حقوقها الأساسية أو انتهاك هذه الحقوق. النماذج النمطية تجعل الكراهية أمرا سهلا. والثقافة الشعبية

على مر التاريخ أنتجت المادة التي تجعل الأنماط أشد وضوحا، وكانت أكثر فاعلية في تحفيز واستدامة مشاعر الكراهية. فعلى سبيل المثال، ظل التشهير باليهود واتهامهم بالخيانة والغدر يتشبثان بالمخيال الشعبي الأوروبي طيلة قرون عديدة، وغدا "شايلوك"، الشخصية التي ابتكرها شكسبير، اصطلاحا عاميا دارجا يشير إلى المرابين المتجردين من المبادئ الأخلاقية، الذين يطلبون فوائد ربوية ضخمة على قروضهم. النازيون أنتجوا أفلاما تستغل هذه النماذج النمطية القديمة وتستخدمها كخلفية لتقديم اليهود كجرذان تغزو ببلائها المدن الألمانية. الثقافة الشعبية لا تشكل الأحزاب السياسية، ولا تسن القوانين التشريعية، ولا تحشد الجيوش الجرارة وتعزز وتؤيد وتدافع عن العنصرية، لكنها ظلت على الدوام أفضل من تجندهم من العملاء. صحيح أن الأفلام السينمائية تزخرف، وتصفي، وتكثف، لكن ما تقدمه موجود بالفعل على أرض الواقع.

إلا أن للنماذج المنمطة حضورا قويا وطاغيا على جانبي خط التقسيم. الفاصل بين أولئك الذين يكرهون وأولئك الذين يزعمون بأنهم ضحايا الكراهية. لنأخذ على سبيل المثال المنشور الذي وزعته في مساجد بريطانيا الجماعة المتطرفة المعروفة باسم "حزب التحرير"، وذلك بعد بضعة أسابيع من أحداث الحادي

عشر من سبتمبر. وتحت عنوان "الحملة الهادفة لتخريب الإسلام كعقيدة ونظام"، يعلن المنشور أن أمريكا قد أعلنت البدء "بحملة صليبية ضد الإسلام والمسلمين". لأن "الكفار يغارون من وحدة المسلمين ويحسدون الإسلام على قوته". وأمريكا لا تترك فرصة متاحة دون أن تهزأ بالإسلام وتحقره، "وتذل أبناءه المخلصين، وتفسد مجتمعاته، وتنهب ثرواته، وتقتل الأبرياء، وتتحدى المسلمين ليل نهار في معتقدهم. وبينما استهدف الصليبيون في الماضي احتلال أجزاء من ديار الإسلام، فإن صليبيي اليوم يستهدفون في هجمتهم على الإسلام والمسلمين تدمير الإسلام بدفع المسلمين إلى التخلي عن عقيدتهم واعتناق عقيدة العلمانية". ويحث المنشور المسلمين على القبول "بالرأي الإسلامي الصحيح": "فالإسلام دين الحق وكل ما عداه باطل"، ويحضهم على قتال الأمريكان. فقتال الكافرين، كما ذكر، فرض عين على كافة المسلمين، لأنه تعالى "أرسى أساسا واضحا للعلاقة بين الإسلام وغيره من الأديان والملل. هذا الأساس يتمثل في أن الإسلام والكفر لا يلتقيان تحت أي ظرف مهما كان". الحل الوحيد هو الجهاد، الذي يجب فهمه فقط بأنه قتال[7]، مثل هذه الكراهية المدفوعة بدافع ديني ليست مقتصرة على "حزب التحرير" حصرا - إذ يمكن أن نجدها في بيانات

وخطابات العديد من الجماعات الأصولية والمتطرفة في الشرق الأوسط، وباكستان، وجنوب شرق آسيا.

لكن لمثل هذه الآراء نقيضها المعكوس أيضا، فبعد أن اتخذت الصحيفة السعودية الناطقة بالإنكليزية "عرب نيوز" (Arab News)، موقفا مناهضا لقصف أفغانستان بالقنابل، تلقى رئيس تحريرها سيلا دافقا من الرسائل عبر البريد الإلكتروني من أمريكا. أحد القراء من مونتانا كتب في الخامس عشر من كانون الأول/ ديسمبر 2001 يقول: "أكرهكم جميعا. القرآن كتاب الشيطان، إبليس، تعاليم الشر، الكتاب الذي استخدم لتبرير القتل. كل من يعتنق الإسلام هو ابن الشيطان. لسوف يشهد المستقبل صراعا عنيفا، معركة ملتهبة بين الإسلام والمسيحية. وسوف يخلص مجاهدو المسيحية العالم من الجحيم الشيطاني الذي هو الإسلام..". قارئ آخر اسمه توم كتب في التاسع والعشرين من كانون الثاني/ يناير 2002: "أنا أمريكي. أتحرق شوقا إلى الزمن الذي لا نعود فيه بحاجة للنفط السعودي، وعندها لن نضطر للتعامل معكم أيها المجانين. سيكون العالم مكانا أكثر أمانا إذا غاب عنه متطرفوكم المتدينون". اختار رئيس التحرير، وهو رجل محب لأمريكا درس في الولايات المتحدة وأرسل أربعة من أبنائه الخمسة

للدراسة في جامعاتها، اختار عدم تجاهل هذه الرسائل، وانخرط في حوار مع مرسليها. وتمكن بالتدريج، عبر استخدام منهج الاعتدال واللطف، من تهدئة غضب قرائه وإقناعهم بتجاوز النمطية العالقة في أذهانهم[8].

مشاعر الكره تتفاقم في العزلة. ويمكن تجاوزها أحيانا - لكن ليس دائما - بواسطة اللقاء والحوار. كريس تونسينغ، محرر "تقرير الشرق الأوسط" الذي يحظى باحترام كبير، يصف لقاء تم بينه وبين نادل مصري قابله عام 1998 في ميناء السويس الهادئ. يقول تونسينغ:

ما إن رشفت من قدح الشاي في مقهاه، حتى سحب كرسيا وجلس لنتبادل الحديث، على عادة المصريين مع الأجانب. وبعد وقت قصير من بدء حديثنا الودي، نظر في عيني وقال: "أريد الآن أن أطرح عليك سؤالا فظا: لماذا يكرهنا الأمريكان؟". رفعت حاجبي متسائلا، فاضطر لشرح ما يقصده، وزودني الشرح ببعض الرؤى المتبصرة عن السبب الذي يجعل الآخرين يكرهوننا.

العديد من قرارات الأمم المتحدة أكدت بوضوح على أن احتلال إسرائيل للضفة الغربية، وقطاع غزة، والقدس الشرقية، أمر غير شرعي. ومع ذلك تتلقى إسرائيل 40٪ من كافة

المساعدات الخارجية التي تقدمها الولايات المتحدة، أي أكثر 3.5 مليار دولار في السنة، بمعدل خمسمائة دولار لكل مواطن إسرائيلي (سيبلغ متوسط دخل الفرد في مصر 656 دولارا هذه السنة). وتستخدم إسرائيل كل هذه المعونة المالية لبناء مستوطنات جديدة على الأرض الفلسطينية، وشراء المقاتلات والحوامات الحربية الأمريكية. سأل النادل: "لماذا تدعم الولايات المتحدة إسرائيل التي تقمع العرب وتضطهدهم؟". وتابع قائلا إن الأدلة تثبت بكل وضوح أن الحظر الاقتصادي الذي تقوده الولايات المتحدة على العراق يعاقب المدنيين العراقيين بينما لا يؤثر كثيرا في نظام صدام حسين. وأيدت رأيه دراسة أجرتها "اليونيسيف" عام 1999 أظهرت فيها أن نصف مليون طفل عراقي تحت سن الخامسة سيكونون على قيد الحياة اليوم لو لم تكن العقوبات الاقتصادية موجودة. من المؤكد أن الأطفال العراقيين ليسوا أعداء للسلام والأمن الدوليين، كما أكد النادل في جداله العنيف، حتى وإن كان حاكمهم ديكتاتورا وحشيا. إن الولايات المتحدة تضغط بكل قوة من أجل استمرار العقوبات لأن صدام حسين يستخف ويهزأ بقرارات الأمم المتحدة، لكنها تقف إلى جانب إسرائيل حين استخفت بقرار مجلس الأمن رقم 242 (الذي طالب إسرائيل بالانسحاب من "أراض" احتلتها في حرب عام 1967) طيلة أكثر من ثلاثين سنة.

فالعرب والمسلمون يعانون كثيرا من هذه وغيرها من السياسات الأمريكية.

المنطق الوحيد الذي يستطيع هذا الشاب المصري رؤيته هو أن أمريكا تسعى إلى شن حرب عالمية ضد الإسلام، تكون فيها الغالبية الساحقة من الضحايا من المسلمين. واختتم بالقول إن أمريكا دولة ديمقراطية، ولذلك لابد أن الأمريكيين يكرهون المسلمين وإلا لما صادقوا على شن هذه الحرب[9].

يؤكد تونسينغ للشاب المصري بأنه ربما أصاب في مقدماته المنطقية لكنه أخطأ في النتيجة المستخلصة. فقد تكون الولايات المتحدة دولة ديمقراطية، لكن المواطنين الأمريكيين ليست لهم مدخلات مؤثرة في السياسية الخارجية للولايات المتحدة، فهم لا يختارون حلفاء وأعداء حكومتهم. وهم لا يدلون بأصواتهم حول جدول المعونات الخارجية، ولم تجر استفتاءات حول ما إذا كان من المتوجب دعم / أو عدم دعم إسرائيل في كافة والظروف، أو هل يتوجب على الولايات المتحدة استخدام حق النقض لإجهاض قرارات الأمم المتحدة. إذ يمتلك الأمريكيون، حسبما يقول تونسينغ، إحساسا أساسيا بالعدل والنزاهة، لكنهم نادرا ما حصلوا على معلومات دقيقة حول أثر السياسة الخارجية لبلادهم. ولذلك، بمقدور الشاب المصري أن

يسأل، وهو محق في سؤاله، ما الفائدة من ديمقراطيتكم وحريتكم؟

السؤال الذي تطرحه أمريكا إذن ليس فريدا متفردا. فهو ينعكس لدى "الناس" الذين تحاول فهمهم، وتعريفهم، وتحديدهم، الحشد الذي يخرج منه الإرهابيون. ومن منظور النادل المصري الشاب والعديد من المسلمين، أمريكا هي التي تكره المسلمين؛ وكراهيتهم لأمريكا تنبثق من هذا الإدراك.

يعترف تونسينغ أمام النادل المصري وأصدقائه بأن "النماذج الهوليودية المنمطة للعرب والمسلمين باعتبارهم متعصبين مسعورين يرفعون 'المصاحف'، تعزز الإدراك السائد بأن المسلمين وجدوا ليكونوا هدفا للكراهية والازدراء"[10]. وبمقدوره أن يضيف إن لدى شعوب العالم كله نفس الانطباع المستخلص من معظم الصحف والمجلات والدراسات الأكاديمية الأمريكية. وحين بعثت صحيفة "تورنتو ستار" (Toronto Star) أحد مراسليها للتجول في المكتبات وتقصي "أدب الكراهية" على رفوفها، كان ما اكتشفه مذهلا. ففي قسم المجلات في إحدى المكتبات وجد على غلاف عدد 2001/12/3 من مجلة "ناشيونال ريفيو" (National Review):

رسما لجورج بوش بهيئة أحد فرسان الصليبيين في القرون الوسطى، وضم العدد مقالا بعنوان: "الشهيد: جرائم ومجازر المسلمين ضد المسيحيين"، اقتبس فيه الكاتب النتيجة التي توصل إليها كتاب صمويل هنتنغتون "صراع الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمي": "المشكلة الأساسية أمام الغرب ليست الأصولية الإسلامية. بل الإسلام، الحضارة المختلفة التي اقتنع أتباعها بتفوق ثقافتهم وهجسوا بدونية قوتهم". صحيح أن المقال يبتعد كثيرا عن [كتاب هتلر] "كفاحي"، لكننا قد نسامح المسلم الذي يتصفح مجلات المكتبة ويصادف مثل هذا التصريح إذا شعر برعدة اخترقت عظامه من الجو البارد المحيط به![11]

أو كما علّق المفكر الشهير إدوارد سعيد، الذي أقام في نيويورك لسنين عديدة ودرّس في جامعة كولومبيا، في مقالة نشرت في "الأهرام الأسبوعي":

لا أعرف أمريكيا عربيا أو مسلما لا يشعر الآن بأنه ينتمي إلى معسكر الأعداء. إن وجودنا الآن في الولايات المتحدة يجعلنا نمر بتجربة اغتراب وعزلة بغيضة على

نحو خاص، ويحولنا إلى هدف لمشاعر العداء المنتشرة في كل مكان[12].

حين تكون القوالب النمطية الجاهزة هي المعيار، فإن المرآة تعكس المرآة، مثل تلك المرايا المحدبة في مدن الملاهي التي تشوه الصور المشوهة. لنأخذ على سبيل المثال المقالة التي كتبتها آن كولتر محررة مجلة "ناشيونال ريفيو" تحت عنوان: "إنها حرب":

ليس هذا بالوقت المناسب للدقة في تحديد الأفراد المتورطين بشكل مباشر في هذا الهجوم الإرهابي بالذات. إذ يشمل المسؤولون عنه كل من ابتسموا ردا على قتل مواطنين غيورين من أمثال باربرا اولسن، في أي مكان وجدوا فيه.. هؤلاء الذين يريدون تدمير بلادنا يعيشون بيننا، ويعملون في خطوطنا الجوية، ويخضعون في مطاراتنا لنفس التفتيش الذي يخضع له قاطع الأخشاب الذي يقطن ايداهو. وهو أمر يشبه قبول هجرة أفراد سلاح الجو النازي إلى أمريكا والعمل في خطوطنا الجوية خلال الحرب العالمية الثانية، فيما عدا أن هؤلاء لم يكونوا على هذا القدر من التعطش لسفك الدماء..

يجب أن نغزو بلادهم، ونقتل زعماءهم، وندفعهم إلى اعتناق المسيحية. لم نكن حريصين على تحديد مكان هتلر وكبار معاونيه فقط ومعاقبتهم دون غيرهم. لقد أبدنا المدن الألمانية عن بكرة أبيها، وقتلنا المدنيين. فتلك كانت حربا. وهذه حرب أيضا[13].

الغضب الذي اجتاح كيان كولتر لأن مشاعر الكراهية قد استهدفتها، عكس في النهاية نفس الاعتداء الذي اشتكى منه. كان رفضا متحديا لمعرفة أي شيء إضافي عن السياق والظروف التي يعيش فيها الآخرون، ويفكرون، ويتأثرون بالأحداث.

ثم هنالك ريك لوري الذي ذكر في موقع مجلة "ناشيونال ريفيو" على الإنترنت (موقع الويب الأول للمحافظين في أمريكا) أن "شعورا راوده بقصف مكة بالقنابل النووية". وعلق قائلا:

يبدو هذا مبالغة في العنف والقسوة، ولا أدري تماما بم أفكر. قصف مكة أمر متطرف إلى أقصى حد، لكن الضحايا ستكون قليلة وسيبعث بإشارة واضحة. الأديان عانت من مثل هذه النكسات الكارثية من قبل.. وعلى وجه العموم، حان الوقت لاتخاذ موقف جدي - بما في ذلك التفكير بماهية الرد، بحيث يكون له تأثير رادع قليلا - قبل أن يسقط آلاف مؤلفة من الأمريكيين ضحايا[14].

يتماهى كل من لوري وكولتر مع المشاعر العاطفية الشعبية وينطق بالآراء الشائعة في الشارع الأمريكي. ترى، هل هذه الموجة العاطفية الكاسحة هي التي تصوغ السياسة، وتحدد الاستجابة السياسية والعسكرية؟ يفهم الناس داخل أمريكا أنه يوجد طيف واسع من الآراء، ويعرفون كيف تعمل. للغوغاء والعامة سياق، واستقطاب الرأي أصبح الآن المعيار الثابت في القنوات الإخبارية التي تبث على مدار الساعة، بعد أن تحولت إلى حلبة مصارعة حتى الموت، ولم تعد القضايا تخضع للحوار والجدل بقدر ما تستخدم كأدوات كليلة مثلمة. لكن أمريكا تقدم نفسها كأمة أعادت التوكيد حديثا على وحدة الهدف. إذن، هل يجب على الآخرين تجاهل تعليقات كولتر ولوري أم أخذها على محمل الجد؟ إذا كان خطابهما الطنان مجرد ضجيج في الخلفية، وليس سياسة جدية، فهل ينبغي علينا أن نسأل هل تنطبق هذه الفوارق التمييزية على كل جدل أو حوار آخر؟ هل يحول الضجيج الصاخب في الخلفية، الذي ينطلق من النماذج المنمطة الجاهزة و"الكليشيهات" الثقافية المبتذلة، بين أمريكا وبين تعلم ومعرفة المزيد عن الآراء التي تصدر عن هؤلاء الذين تسعى جاهدة لفهمهم والتعرف عليهم؟

العثور على النموذج المنمط يعني الظن بأننا وجدنا الجواب، في حين أن كل ما تخبطنا للوصول إليه هو جزء صغير من المشكلة. إذن، ما هو السبيل، وإلى أين الوجهة؟ سؤالنا يحتاج إجابات مؤسسة على المعرفة. إلى أين نلجأ لملء فجوة المعلومات؟ ومثلما بيَّن إدوارد سعيد في مقالته في "الأهرام الأسبوعي":

> تجاوزت وسائل الإعلام الحدود في تناول "الخبراء" و"المعلقين" للقضايا المتعلقة بالإرهاب، والإسلام، والعرب، وكان خطها تكراريا واختزاليا إلى ما لانهاية، ومعاديا ومشوها لتاريخنا، ومجتمعنا، وثقافتنا إلى درجة أن وسائل الإعلام ذاتها قد أصبحت أكثر قليلا من ذراع ضاربة في الحرب على الإرهاب في أفغانستان وغيرها..[15].

إدوارد سعيد هو مؤلف الدراسة الكلاسيكية "الاستشراق" (1978)، التي تناولت التقليد التراثي في الأدب والبحوث الأكاديمية، الذي قامت الحضارة الغربية من خلاله بتمثيل وإدراك الإسلام والمسلمين. لم يكن إدوارد سعيد المفكر الوحيد الذي أظهر كيف تدعم الأفكار العلمية الأكاديمية القوالب النمطية الراسخة في المخيلة الشعبية وتؤبدها وتنفخ فيها الروح. لقد تطورت التمثيلات الأساسية للمسلمين التي تقدمهم كمحاربين برابرة متعصبين، وفاسقين عاجزين، ومنحلين

منغمسين في الشهوات، يعيشون على نقيض من القانون الطبيعي، تطورت في وقت مبكر من بدء الدراسة الأكاديمية العالمة في الغرب وظلت تقاوم التغيير من ذلك الحين. أما فرضيتها المركزية فبقيت على الدوام مؤسسة على أن قصور وعجز وإخفاق المسلمين، كشعب ومجتمع، ناتجة جميعا عن معتقداتهم. وما استنتجته أوروبا القروسطية عن الإسلام والمسلمين وصفه المؤرخ البريطاني نورمان دانيل بأنه "المعرفة الجاهلة"، حيث حددت وعرفت حقائق يستحيل وجودها، في حين توفرت لنا الوسائل والأدوات لمعرفة الحقيقة الفعلية بطرائق مختلفة[16]. والأهم من كل ذلك أن الاستشراق الأكاديمي/العلمي يدعم فكرة أن العاقبة الطبيعية لمعتقدات المسلمين تجسدها السمات والخصائص المميزة للنمط المعياري الذي وضعوا في قالبه. فقد اعتبر الإذعان والخضوع، والتزمت والتعصب، سمات محورية متأصلة في طبيعة الحضارة الإسلامية المكونة من كتلة واحدة صلبة ومتراصة. ومن التقاليد التراثية الراسخة عدم تفحص وتقصي تعددية وتنوع الآراء الموجودة في المجتمع الإسلامي، وعدم رؤية حقيقة أن الخطاب الحضاري هو الذي شكل أفراده وتاريخه، والاكتفاء باعتبار الاستثناء قاعدة والحد المتطرف معيارا.

كانت للسلطة المعرفية الاستشراقية عواقب وتبعات عملية هائلة. فقد أسست القواعد البنائية للكتب العلمية/ الفكرية، إضافة إلى الصحافة الشعبية، ووجدت متنفسا لها في شخصية الشرير المنمطة في الأفلام السينمائية علاوة على التفكير السياسي الاستراتيجي. لكن الأهم من كل ذلك، أنها وفرت دافعا للخوف والقلق ضمن العلاقات بين المواطنين العاديين غير المسلمين والسكان المسلمين في أوروبا وأمريكا. إذ لا تتواجد بواعث العنصرية والتمييز العنصري في طول أمريكا وعرضها في مواقف وتصرفات وأفعال الشريحة المتطرفة البغيضة وحسب. بل قد تكمن ضمنيا في المواقف العادية الشائعة، في معلومات الناس من ذوي النوايا الحسنة والمقاصد النبيلة، الذين يتصفون بالطيبة والرهافة والمشاعر الرقيقة.

لكن كيف يمكن للمعرفة أن تكون "معرفة جاهلة"؟ الاستشراق ليس فريدا في هذا السياق. فقد ظل العلماء والأكاديميون المتخصصون يؤكدون طيلة عقود عديدة على أن الأفارقة عرق "دوني"، عبيد بطبعهم، شعب بدائي "من الحطابين والسقاءين". ولم تكن الأحكام المسبقة المتحيزة هي التي أوجدت "المؤسسة الغريبة". كما أطلق على نظام الرق لتلطيف بشاعته في الولايات الجنوبية من الولايات المتحدة الأمريكية. إذ

تلقت العبودية الدعم من العلم والاستقصاء العلمي البنيوي الذي تبناه علم التشريح، والبيولوجيا، ثم التركيبة الجينية للأعراق المختلفة. لم يتبخر ميراث هذه الكتلة المخزية من المعارف في الهواء، مثلما رأينا في الجدل الخلافي الذي دار حول "المخطط البياني" (1994)، الذي حاول أن يقدم الحجة على وجود فئة طبيعية من الأمريكيين، السود غالبا، يعانون من نقص في الذكاء والقدرات الإدراكية/ المعرفية الضرورية للتعامل مع مجتمع المعلومات[17]. تعتبر مثل هذه الأفكار اليوم خاطئة عموما، لا بوصفها نتاج تضليل وعناد وسوء حكم، بل باعتبارها إساءة استخدام واضحة للعلم والمعرفة. لكن التبعات السياسية والاجتماعية للمواقف المعتمدة على هذه المعرفة ما زالت تشوش وتربك العلاقات العرقية بين السود والبيض في أمريكا. وظل استئصال العنصرية المحبوكة في نسيج المجتمع الأمريكي عملية طويلة ومؤلمة، ومهمة لم تكتمل حتى الآن. كما أن لدى الأمريكيين المسلمين، والمسلمين في كافة أنحاء العالم بندا آخر يضيفونه إلى "أجندة" المهمات الضرورية: مغالبة ميراث التاريخ، والتخلص من العواقب السياسية والاجتماعية والثقافية للاستشراق. ففي أوقات الأزمات، من الأصعب، ومن الأهم والأشد ضرورة، وضع ما نعرفه ونعتبره معرفة موضع المساءلة والاستقصاء.

إذن، يجعل الاستشراق من المسلمين جماعة يتعذر فهمها لكن يمكن التنبؤ بفعلها. استمرارية هذا المنظور، واللجوء المتواصل إلى نفس المجموعة من المدركات في الأعمال والدراسات الأكاديمية، الأدبية، والتاريخية، والسياسية، إضافة إلى الأفلام الهوليودية، يفضيان إلى نتيجة مفادها أن الإسلام والغرب قد انخرطا في صراع الحضارات منذ بدأ النبي محمد صلى الله عليه وسلم بالتبشير برسالته عام 610م. الاستشراق يمثل صالة أخرى من صالات المرايا المحرفة حيث لا تصبح الصور المشوهة مجرد أنماط شعبية مبتذلة فقط بل "معرفة ثقافية" أيضا.

على ضوء ما تقدم، هل نعتبر من المفاجئ أن يرى الكثيرون في الغرب "الحرب على الإرهاب" هذه الأيام بمثابة فاتحة استهلالية لتجدد صراع الحضارات؟ السؤال يتردد في كل صحيفة ومجلة. ولم يكن بحاجة لأن يطرحه العالم السياسي الأمريكي اليميني صمويل هنتنغتون. فالفكرة لم تغب بالفعل أبدا. هنالك إحساس نبوئي يتوقع ظهور أسامة بن لادن كشيطان يقود هجمة حضارته، نظرا لأنه يجسد العديد من التفاصيل الجوهرانية للصورة العابرة للزمان التي تقدست بفعل قدمها،

وينتظرها الغرب من مسلم يهرطق بالأفكار والأفعال والخطاب البلاغي الطنان.

لكل ذلك، هل يجب أن نفاجئ حين يفهم الرأي العام الأمريكي أحداث الحادي عشر من سبتمبر بوصفها تحققا للحد الأقصى من التنبؤات الاستشراقية؟ حقيقة الوضع أعقد من ذلك. يقول جوزيف اس. ناي، عميد كلية الإدارة السياسية بجامعة هارفارد: "لا يكرهوننا كلهم، ولا يجسد بن لادن المحفّز الوحيد للإرهاب. طائفة 'أوم شينريكيو'، التي هاجمت بالمواد الكيمائية السامة مترو الأنفاق في طوكيو قبل بضع سنين، انصب اهتمامها على استثارة حرب بين الولايات المتحدة واليابان. وتيموثي مكفي [المتهم بتفجيرات مدينة اوكلاهوما] إرهابي أنتجته البيئة المحلية. السؤال المهم هو هل بمقدور هذه الكتل الصلدة من الكره أن توسع جاذبيتها لتتجاوز إطار الجماعات الضيقة. الجواب عن ذلك يعتمد في جزء منه على ماذا تمثل الولايات المتحدة وماذا تفعل"[18].

ما تمثله الولايات المتحدة وتفعله أزعج وأقلق الكثيرين - خصوصا حشد المفكرين اليساريين الذين تطرقنا إليهم في الفصل الأول. لكن سيكون من الخطأ الافتراض بأن كل الناس في العالم اللاغربي يتبنون رأيا موحدا إزاء أمريكا. العائلة

المالكة الكويتية مثلا تشعر بامتنان كبير للولايات المتحدة ـ ولا تفوت فرصة دون أن تظهر حبها لها وتعاطفها معها. لكن في حين يعرب الكويتيون عن شكرهم لدعم أمريكا لقضيتهم (تحريرهم من الاحتلال العراقي)، فإن الفلسطينيين يكرهون أمريكا لعدم تأييدها لقضيتهم وامتناعها عن كبح جماح إسرائيل على وجه العموم. لا توجد لدى النخب في العالم الثالث، التي استفادت بشكل مباشر من المعونات الأمريكية أو الصفقات التجارية، ولا أنظمة الحكم التي بقيت في السلطة بفضل الدعم الأمريكي، أسباب تدعوها لكره الولايات المتحدة. الضغينة الحقيقية تكمن في أولئك الذين يعتبرون أنفسهم ـ لسبب من الأسباب ـ ضحايا لجبروت وسياسات الولايات المتحدة. ولا يضم هؤلاء فقط مليارا أو نحوه من سكان الأرض الذين ينحون باللائمة على برامج "الإصلاح الهيكلي" التي يفرضها صندوق النقد الدولي (وبالتالي أمريكا) عليهم فيبيتون لياليهم جائعين؛ أو كل أولئك الناس في آسيا وأفريقيا الذين يشيرون بأصابع الاتهام إلى الشركات الأمريكية المتعددة الجنسية بسبب استيلائها على مواردهم الطبيعية، بدءا من البلازما الوراثية لقطعان مواشيهم، وانتهاء بعقاقيرهم وأعشابهم الطبية التقليدية الراسخة منذ القدم؛ أو أولئك الذين يعتبرون أنفسهم ـ صوابا أو خطأ ـ ضحايا للتدخل الأمريكي في أمريكا

اللاتينية؛ بل الفرنسيين أيضا، الذين يشعرون بأن ثقافتهم تتعرض لتهديد القوة الماحقة للعولمة بقيادة أمريكا؛ واليابانيين والكوريين الجنوبيين الذين يشعرون بأن الوقت قد حان ليقولوا "لا" لأمريكا. من الواضح أن "الناس" الذين يملكون سببا لكره أمريكا، أو يعتبرون كذلك، يشكلون حشودا ضخمة هائلة العدد. ولسوف نستكشف ونستقصي العديد من مصادر "الكراهية" - الغربية واللاغربية - في الفصول التالية.

وهنالك مظهر آخر من مظاهر سؤال الكراهية هذا. إذ إن للفظة ذاتها العديد من الاستعمالات والتدرج: "أكره البيض المسلوق"، "أكره موسيقى 'الراب'"، "أكره الأحكام العنصرية المسبقة". المدلول على درجة من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى ذكر: من الممكن تماما أن تعارض شيئا إلى أقصى حد، وتعتقد حقا بأن موسيقى "الراب"، أو التمييز العنصري، أو أي شيء آخر "مكروه"، ما كان يجب أن يوجد أو يحتمل، وتبغضه وتمقته بصدق، ومع ذلك تظل قادرا على التعايش السلمي معه في العالم الذي يتواجد فيه. الطريقة العفوية الذي تتحول عبرها الاختلافات السياسية الحقيقية إلى كراهية، وتصبح انتقادات التصرفات والسياسة الأمريكية مناهضة لأمريكا أو "أنشطة معادية" لها، تعتبر وصفة ناجعة لإنهاء الحوار، وعدم فهم منطق الخلافات المتبادلة.

الكراهية إذن تعبير ملتبس. لكن هناك دلالة واحدة للكراهية جعلتها أحداث الحادي عشر من سبتمبر أمرا لا مفر منه: الشر. "الناس" الذين يكرهون أمريكا جرى تصنيفهم مرارا وتكرارا في خانة "الشر" - "رجال أشرار"، "مرتكبو أفعال شريرة"، "محور الشر". ليس ثمة شك في حقيقة أن أحداث الحادي عشر من سبتمبر فعل شرير، بالمعنى المعجمي للكلمة أي "الطالح، السيئ أخلاقيا، المؤذي والمضر". لكن الشر ليس فقط مفهوما معقدا ظل الفلاسفة الغربيون يجدون صعوبة في التعامل معه طيلة قرون؛ بل هو أيضا سلاح ذو حدين. السؤال "لماذا يكره العالم أمريكا؟" ذاته صب اهتمامه على طبيعة الشر.

الشر المحض / الخالص لا حل له سوى استئصاله، ومحاولات اجتثاث الشر تولد نفس العدد من المشكلات التي تحلها، إن لم يكن أكثر. كل الأديان تعلمنا أن تاريخ الوجود الإنساني هو عبارة عن كفاح نضالي ضد الشر. أما وصف "الآخر" بتعابير الشر المحض/ المطلق فهو أمر مغر لأنه لا يتطلب من الذات تفحص أفكارها ودوافعها ومشاعرها، ولا تقييما لأي سياق وظروف مساعدة. الانتقال إلى الشر كتفسير يحل كافة المعضلات المبهمة التي ترتبط بالكراهية. ويصبح دعوة "لتحديد عدو ما"، حسبما أشارت الصحفية البريطانية باربرا غونيل في

مجلة "نيو ستيتسمان" (New Statesman). الإدارة الأمريكية وقيادة طالبان وصفت كل منهما الأخرى بمصطلحات الشر. ففي حين أعلن الرئيس بوش أن "حربنا حرب ضد الإرهاب والشر"، رد الملا محمد عمر زعيم نظام طالبان بأنه لن يقبل أبدا بالحكومة التي نصبتها الولايات المتحدة، بدعم من الأمم المتحدة، في أفغانستان لأنها مكونة من "أشرار". وأعلن أيضا أن "أمريكا خلقت الشر الذي تهاجمه". مثل هذه الأحكام المجملة المتعجلة لا تفيد كثيرا في فهم ومعرفة الموضوع. تقول غونيل: "'محور الشر' لا يخبرنا شيئا عن تصرفات المواطنين في العراق أو إيران أو كوريا الشمالية (ناهيك عن علاقاتهم ببعضهم بعضا). فهو مجرد دعوة لتحديد أعدائنا. وعبر الحديث عنهم بوصفهم 'أشرارا'، لا نحتاج لأن نسأل لماذا يتصرفون على هذا النحو، ويشعرون بالغضب والحنق أو بالاضطهاد والقمع، ويؤثرون العمليات الإرهابية الانتحارية على الاحتجاج السلمي أو المعترك السياسي. الأسئلة التي نحتاج جميعا لإجابات عنها منذ الحادي عشر من سبتمبر تسقط كلها من 'الأجندة' إزاء توصيف 'الشر'. الشر يتطلب معارضة ومجابهة بدلا من التحليل أو الفهم"[19].

الشر مسألة أخلاقية، لكنه أشد تعقيدا بكثير مما يسمح به الخطاب السياسي الطنان المفرط في التبسيط. الأمر الذي يذكرنا بعبارة ت. س. اليوت المرعبة في مسرحية "جريمة في الكاتدرائية": "الخطيئة تنمو مع عمل الخير". إن جوهر الحكم الأخلاقي هو تفحص الذات، هو الاستعداد للخضوع لامتحان واستقصاء ما دعاه اليوت (في "الرباعيات الأربع") بـ"أفعال شريرة ارتكبتها وسببت الأذى للآخرين / واعتبرتها ذات مرة ممارسة للفضيلة". حتى الأقوى لا يملك بالضرورة كفاية من المعلومات أو السيطرة لتقدير العواقب المحتملة أو الفعلية لقراراته. إن القول بأننا جميعا يمكن أن نتمتع بالحكمة وندرك طبيعة الحدث بعد وقوعه هو مجرد "كليشيه" مبتذلة. لكن عبارة اليوت توحي بشيء أكثر صعوبة وإثارة للقلق: حقيقة أن افتراضاتنا حول الخير والشر ليست - من منظور معين - أحكاما أخلاقية على الإطلاق، بل تخمينات منحازة ترتكز على المصلحة الشخصية. فنحن نملك القدرة على فعل ما نعتبره نافعا وخيرا رغم ما يسببه من ضر وشر لنا وللآخرين. بالاستقصاء الدقيق فقط والتفكير المتروي بالأشياء من زوايا مختلفة نتمكن من تبين الأمور وتمييز الخير من الشر.

الأهداف التي تعرضت للهجوم في الحادي عشر من سبتمبر كانت منتقاة ومقصودة، واختيارها ارتبط مباشرة بسؤال لماذا يكره العالم أمريكا. مركز التجارة العالمي كان حين اكتمل بناؤه أعلى ناطحة سحاب في العالم، وغدا رمزا للاقتصاد العالمي في نظام اقتصادي معولم. أساساته راسخة في عمق تراب المدينة "الكوزموبوليتانية" الأولى في أغنى دولة على وجه الأرض. أما البنتاغون فهو مركز قيادة القوة العسكرية لأقوى دولة في التاريخ البشري. أمريكا، القوة العظمى الوحيدة، هي الآن الدولة الفريدة "المفرطة القوة". القوة المادية، استخدامها وسوء استخدامها، كيف يختبرها العالم /الناس خارج الولايات المتحدة - هي جميعا قنوات للبحث والتقصي تقلق الأمريكيين على ما يبدو واضحا في أعقاب هذه المأساة. لا يجب أن يقتصر الاهتمام بممارسة الفضيلة، التي قد تفضي إلى إلحاق الأذى بالآخرين، وبالتالي تصبح رذيلة تمكن الإثم من النمو عبر فعل الخير، لا يجب أن يقتصر على الحكومات ورجال الدولة فقط. وكما أعلن رونالد جي.هيرنغ، مدير "مركز ماريو اينودي للدراسات الدولية" في جامعة كورنيل، أمام تجمع لـ"أسبوع التعليم الدولي": "حرية أمريكا في العمل على المسرح العالمي تركت الكثيرين يتعثرون ويعانون بسبب عواقبها، النية الحسنة - إدراكنا الذاتي الوطني - لم تكن كافية. معظم الأمريكيين

لم يعاينوا سياستنا الخارجية من خلال عدسات أهدافها - أو لم يدرسوها على الإطلاق". ويعترض هيرنغ على وجه الخصوص على إجابة الرئيس بوش "بأنهم يكرهون حرياتنا". فبالنسبة له يتمثل الجواب الأفضل في أن مشاعر الاستياء من سوء استخدام القوة لدى كثير من الناس في العديد من بقاع العالم أشد تأثيرا من كرههم للحرية الأمريكية:

أولئك الذين يشعرون بأنهم تعرضوا للتهميش والإقصاء، أو الغدر أو الإذلال، أو الأذى والضرر بسبب قوتنا ليسوا جزءا من مجتمعنا المحلي الذاتي. لقد بدأنا للتو مصالحة أنفسنا مع غضبهم، وانتشاره، وأسبابه الجذرية.

من المفارقة أن البحث عن الأسباب قد صور بأنه عمل غير وطني. العكس هو الصحيح: إذا فشلنا في فهم الأسباب فإننا كأمة سوف نفاقم ونضاعف الظروف المهددة الداهمة التي نبتلي بها الآن. وسنترك الخوف ميراثا للأجيال القادمة[20].

من الواضح أن كيفية إدراك أمريكا للآخرين وكيفية إدراك الآخرين لأمريكا تشكلان جوهر السؤال الذي نقوم باستكشافه. فأمريكا تؤثر، بشكل مباشر أو غير مباشر، في حياة كل فرد ومجتمع محلي وأمة على ظهر الأرض. ولذلك فإن

كافة الأجوبة الممكنة والمتنوعة للسؤال "لماذا يكره العالم أمريكا؟" لا تتصل اتصالا وثيقا بالأمريكيين فقط بل بكل فرد في كل مكان في العالم. لقد كتب الشاعر روبرت بيرنز ذات مرة يقول: "أتمنى لو وهبنا الله / نعمة أن نرى أنفسنا كما يرانا الآخرون". إن رؤية أنفسنا كما نبدو في عيون الآخرين تتطلب منا أن ننسى خرافاتنا وأساطيرنا ومدركاتنا لذواتنا. هنالك أكثر من أمريكا واحدة - إحداها تلك التي يدركها العالم، وضحايا القوة الأمريكية الطاغية، فهل يمكن لأمريكا أن ترى أمريكا الأخرى؟

بهذا نصل إلى الجزء الأخير من مكونات السؤال: أمريكا. الكاتب الألماني جوزيف جوف، المتخصص في تحليل السياسة الخارجية، قدم في مقالة له بعنوان "من يخاف السيد الكبير؟" (نشرت في مجلة "ذي ناشيونال انترست" The National Interest) توصيفا لأمريكا باعتبارها "خطرا داهما وإغواء مغريا في آن، ووحشا كاسرا ونموذجا يحتذى في نفس الوقت"[21]. لربما هو على صواب. فحين يريد الأمريكيون معرفة لماذا يكرههم العالم، عليهم مواجهة حقيقة أن العالم بأسره مرتبط بعلاقة حب/ كره مع أمريكا. المواطن العادي في أية دولة على الأرض يعرف عن أمريكا أكثر مما يعرفه عن أية دولة أخرى أو شعب

آخر. وما تفكر به أمريكا فيما يتعلق ببقية العالم، وما تعرضه وسائل إعلامها وأدوات الترفيه الشعبية العالمية التي تهيمن عليها، يستهلكه الناس في كل مكان. وبالتغاير مع ذلك، يعاني عامة الأمريكيين من نقص في الأخبار الأجنبية، وافتقار إلى معرفة الثقافات الشعبية الأجنبية، كما يحكمهم ممثلون منتخبون نادرا ما جازفوا بالسفر خارج أمريكا.

صحيح أن دولة ضخمة كبيرة في المساحة وعدد السكان مثل أمريكا ليست كتلة واحدة صلدة وصلبة، لكن لا توجد أمة تضاهيها في مسعاها الدؤوب لتدعيم ونشر وتشجيع شعور بالوحدة بين أفرادها، وإحساس بالهوية المشتركة، وميراث مشترك من الأفكار والتقاليد المستدامة. ولا توجد دولة استقلت حديثا في العالم الثالث تتفوق على أمريكا في اهتمامها بغرس الروح الوطنية في نفوس مواطنيها، أو في إبراز وإجلال وتبجيل رموزها الوطنية. وما تعلّمه وتلقنه لنفسها عن نفسها أمر مألوف ومعروف لدى القاصي والداني من سكان الأرض نتيجة الانتشار العالمي لوسائل إعلامها وثقافتها الاستهلاكية. وكما يشير جوف، هنالك ازدواجية مراوغة ومعقدة في استجابة العالم لأمريكا. فهو أكثر انتباها وتيقظا وملاحظة للتناقضات داخل أمريكا وفي تاريخها مقارنة بالأمريكيين أنفسهم؛ وأشد تلهفا

واهتماما واستعدادا لاستكشاف وتقصي ومناقشة هذه التناقضات من الأمريكيين. ومثلما لاحظ الرئيس كلينتون في خطاب له في جامعة كاليفورنيا عام 1997:

"لقد ولدنا مع إعلان الاستقلال الذي أكد على أننا خلقنا جميعا متساوين لكن مع دستور حافظ على الرق. ثم خضنا حربا أهلية دموية لإلغاء الرق، إنما بقينا غير متساوين بحكم القانون طيلة القرن التالي. تقدمنا عبر القارة باسم الحرية، لكننا طردنا سكان أمريكا الأصليين من أراضيهم. رحبنا بالمهاجرين، لكن كل موجة جديدة منهم شعرت بوخزة التمييز"[22].

من المؤكد أن مثل هذا التعليق لن يلقى ترحيبا لو قاله شخص غير أمريكي، ولاعتبر على الأرجح سافرا في عدائيته. لكن في عالم تتصل أجزاؤه اتصالا وثيقا ببعضها بعضا وتهيمن عليه القوة الأمريكية، لا يستطيع سكانه تجنب الاهتمام بأمريكا وكل ما هو أمريكي. بمقدور أمريكا أن تتصرف بطريقة مختلفة.

إلا أننا بحاجة إلى التعرف على كيفية إدراك الأمريكيين لأمريكا من أجل أن نفهم بشكل كامل العداء الذي يشعر به

الناس تجاهها. ولكي نفعل ذلك "نحن بحاجة لتحليل اللاوعي الأمريكي، أي المكان الذي تتموضع فيه أساطيرها ومدركاتها عن ذاتها"، كما لاحظ لين دول، أستاذ جامعة كاليفورنيا، الذي زار في معظم أصقاع العالم كخبير تابع لـ"اليونسيف" في شؤون الصحة والبنى الحضرية. أضاف دول قائلا:

".. وصل أسلاف الأمريكيين إلى هنا من أوروبا هربا من حكوماتهم البغيضة في رأيهم. تعرضوا للاضطهاد والقمع في أوروبا. ولذلك كان الإدراك مطابقا دوما لأسطورة لمؤلف قصص المغامرات الأمريكي هوريشو الجير (1832 ـ 1899): "اعتمد على نفسك!". وإن توجب عليك القيام بالعمل من أجل الآخرين فلابد أن يكون الذين بحاجة إليك أقل شأنا وعددا. هذا نمط السلوك الطبيعي والعقلاني بالنسبة لهم لأنه جزء حيوي من أسطورتهم. لكن من منظور الآخرين، من السهل رؤية أن اتخاذ هذا الموقف أمر يحط من القدر، وليس من غير الطبيعي أو غير العقلاني بالنسبة للآخرين الشعور بالاستياء منه.

علاوة على ذلك، أمريكا بلاد كبيرة جدا، تتمتع بالاكتفاء الذاتي إلى حد يصبح فيه من السهل علينا تناسي أن

العالم الخارجي موجود فعلا، أو أننا على الأقل لا نحتاجه، وليس ثمة معنى في التعاون معه. نحن في موقع القيادة والمسؤولية. مرة أخرى، تؤدي أسطورة أن أمريكا هي العالم إلى أفعال وأعمال نراها طبيعية لكن يرمقها العالم بعين الشك والريبة، وهو محق في ذلك. التعاون الأحادي الجانب، أي التعاون الذرائعي من أجل المنفعة السياسية وحسب، ليس سوى فهم أبوي/ بطركي خالص ويظهر ازدراء تحقيريا للآخرين. وحين تتجاهل [أمريكا] قضايا مثل التلوث وارتفاع حرارة الأرض، فإنها ترسل إشارة مفادها أن الشيء الوحيد المهم في العالم هو أمريكا. وليس من المفاجئ ألا ينظر أولئك الذين يضطرون لمعايشة عواقب التلوث وارتفاع حرارة الأرض إلى أمريكا نظرة ملؤها الحب والتعاطف والود.

مرة أخرى، انظر إلى وسائل الإعلام الأمريكية التي تبث رسالة مستمرة ومؤبدة عن الثروة، والقوة، والعنف، والجريمة، والعدوانية الخارجة عن حدود السيطرة. الموسيقى الشعبية (POP) تفعل الشيء ذاته. ذلك شيء مريع نصدره كصورة لنا. وهي صورة تلازم أمريكا بشكل طبيعي لأنها موجودة هناك في أساطيرنا المؤسسة[23].

في الفصلين الخامس والسادس سوف نعاين من مسافة أقرب الأساطير والروايات المؤسسة لأمريكا، وكيف شكلت صورتها الذاتية. لكن دعونا نرى أولا كيف يدرك معظم سكان العالم أمريكا، وكيف كانت تجربة "الآخر" مع القوة السياسية والثقافية لأمريكا خلال العقود الخمسة الأخيرة.

obeikandl.com